

المدرسة الاستشراقية البريطانية والرواية المصرية
(تحولات المشهد وأنماط التناول)

د. شريف حتيتة الصافي

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الملخص:

يتناول هذا البحث التحولات التي شهدتها دراسة الأدب العربي الحديث لدى إحدى أهم المدارس الاستشراقية، وهي المدرسة البريطانية، وقد ركز البحث على نحو أكثر عمقًا واختصارًا على دراسات مستشرفي هذه المدرسة للرواية المصرية بوصفها جنسًا مجتدًا للأدب العربي الحديث كمنهجًا وكيفية. ويعرض البحث ما يدل على اهتمام هذه المدرسة بالرواية المصرية وذلك من خلال عرض الأنماط الكتابية التي جاء تناولهم للرواية المصرية من خلالها.

الكلمات المفتاحية: الاستشراقية -

البريطانية - الرواية - المصرية.

Abstract:

This paper aims to observe the transformations of the British Orientalist School on its studies about the Modern Arabic literature, in particular the Egyptian Novel. as well, it shows the types of the British Orientalist writings about the Egyptian Novel.

Key Words: British- Novel- Orientalist- Egyptian.

تقديم:

إن محاولة رسم خلفية تاريخية لفكرة ما، لتحديد الملامح الرئيسة الفارقة في رحلة نشأتها وتطورها هي محاولة من العُسْرِ بمكان، ولكنَّ الحاجة إلى إدراك هذه الملامح تجعل التحديد أمرًا حتميًا لتحديد النقطة التي يمكن للباحث أن ينطلق من خلالها؛ لأننا لا نستطيع أن نقف على حالة مشهد ما لعلم أو فكرة أو مفهوم لنقرأه قراءة كلية شاملة إلا بالوقوف على التحولات وملابساتها.

فالتأريخية لأي مفهوم عمليةٌ تستلزم وعيًا بنيائته وديناميته، وعلى حدِّ قول ميشال فوكو: "إن تاريخ مفهوم ما لا ينحصر في إرهافه التدريجي وتقدمه في اتجاه الدقة والضبط، وسعيه المتزايد نحو المعقولة وارتقائه نحو التجريد، بل هو تاريخ مُتخَلِّفِ حقول تكوينه وصلابته، وتاريخ قواعد استخداماته المتتالية، وميادينه النظرية المتعددة التي تواصل فيها بناؤه واكتمل"⁽¹⁾. وينطبق ذلك على مفهوم "الاستشراق"، فمقولة القدماء "لقد جرت في النهر مياه كثيرة"، تنطبق بقوة عليه، فقد كُتبت بحوث عديدة ومقالات في التعريف بهذا المفهوم، على نحوٍ يتعنى معه مَنْ يحاول أن يتخيَّر مفهومًا ملائمًا يمكن أن يرقى للاصطلاح.

وتُعَدُّ المدرسة الاستشراقية البريطانية إحدى أهم المدارس الاستشراقية؛ فقد كان "الاستشراق الإنجليزي بين أول وأوثق وأوسع ما عرفته أوروبا من استشراق منذ اتصال بريطانيا بالشرقين الأوسط والأقصى اتصالاً ثقافياً وعسكرياً واقتصادياً واستعماريّاً"⁽²⁾.

فقد بدأت الدراسات العربية في إنجلترا عام 1533م، وذلك "حين استحدث السير توماس أدامز (Thomas Adams) أول كرسي للدراسات العربية في جامعة كامبريدج، وأنشأت جامعة لندن كرسيًا للغة العربية، ثم أنشأت كرسيًا للدراسات الإسلامية أشرف عليه "بكنجهام"، ثم أخذت الجامعات الإنجليزية الأخرى تنشيء

أقسام الدراسات الشرقية، ومعظم الجامعات الإنجليزية اليوم تدرّس اللغات والدراسات الشرقية، ثم أخذت هذه الجامعات تنشئ مدارس وكليات تابعة لها في أفريقيا والبلاد العربية والإسلامية في الهند والباكستان⁽³⁾.

ومن ثمّ، فإن هذا البحث يحاول أن يضع أن يضع أيدينا على ملابسات تحول الدراسات الاستشراقية في النظر إلى الأدب العربي الحديث بعناية ممثلاً في الرواية المصرية، ولدى إحدى أهم المدارس الاستشراقية وهي المدرسة البريطانية، وذلك في مبحثين؛ يختص الأول منهما بعرض ملابسات هذا التحول، بينما يختص الآخر بعرض أنماط الكتابة التي ظهرت فيها عناية هذه المدرسة بالأدب العربي الحديث على نحو عام وبالرواية المصرية على نحو خاص.

أولاً- المدرسة الاستشراقية البريطانية والتحوّلات في دراسة الأدب العربي الحديث:

اهتمت دراسات عديدة برصد ملامح الدراسات الاستشراقية وخصائصها والمرجعيات الفكرية التي وجهتها، حتى تكونت لدى كثيرٍ من المتلقين صورة نمطية عن البحث الاستشراقي، تلك الصورة التقليدية التي تربطه في كثير من المواقف بثنائية (التبشير - الاستعمار)، وقد أصبحت هذه الصورة هي السائدة في كثير من البحوث التي تعالج الظاهرة الاستشراقية. لكنّ هذه الدراسات شهدت تحوّلات كبيرة عن صورتها التقليدية القديمة، أصبح معها الاستشراق في فتراته اللاحقة "نتاج جسم من الاستقصاء والتعلم المستمر المتزايد لتحقيق معرفة أكثر تجرّداً وحيادية وعقلانية"⁽⁴⁾.

ولكنّ القول بأن الاستشراق قد تحوّل على إطلاق العبارة قد يُلقي ظلالاً سلبية على واقع الدراسات الاستشراقية قديماً، ولكنّ النظرة الموضوعية لا يمكنها أن تقلل من منهجية الدراسات الاستشراقية وعقلانيتها، وتجرّد أهدافها، حتى في طورها

القديم، والصورة النمطية السلبية التي رسمها إدوارد سعيد للاستشراق والمستشرقين، لم تسلم -على حقيقة الجزء الأكبر منها - من النقد؛ فمن أهم النقودات التي وُجّهت له، وهي كثيرة، أنه أظهر الاستشراق على أنه نسق واحد، ومن ثمّ فقد وقع فيما وقع فيه الاستشراق نفسه حين قدّم صورة نمطية عن الشرق.

إن الذي وقع فيه إدوارد سعيد أطلق عليه أحد الباحثين مسمّى "التنميط المعاكس"؛ يقول ضياء الدين ساريدار: "من بين النقد الذي وُجّه لسعيد أنه قدّم الاستشراق بوصفه خطأً ثابتاً لا يتغير، ذا طبيعة مؤحّدة متناغمة، توجّهه ذكوري محض، على النقيض من ذلك؛ فقد عبّر الاستشراق نفسه عن نطاق واسع من الأصوات، تلك التي لديها خوف من الإسلام Islamophobic، وكذلك من محبي الإسلام، والحركات الداعية إلى الهيمنة، وتلك الساعية إلى معارضة الهيمنة Counter-hegemonic، ويمكننا لهذا السبب، التمييز بينهما من خلال الجنس Gender والأيدولوجية، والتفضيل الجنسي Sexual Preference. إن اختزال سعيد لهذا التنوع وعدم التجانس يقترب في الحقيقة من أسلوب الاستشراق، إلى نوع من التنميط المعاكس"⁽⁵⁾.

وعن شمولية عمل الدراسات الاستشراقية وتخلصها من أسر القديم، يرى عفت الشراوي أنّ أهم ما يوسم به المستشرقون المحدثون، هو أنهم تخلصوا "من صفتين أساسيتين صبغتا العديد من أعمال المستشرقين حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، أولى هاتين الصفتين هي قصر العناية بدراسة حضارة الإسلام على الجانب الكلاسيكي وحده، وثانيتها هي ميل كثير من المستشرقين إلى هوى ديني أو عنصري في تناولهم لحضارة الإسلام"⁽⁶⁾.

إن الملامح العامة لتحوّلات الدراسات الاستشراقية يأتي على رأسها التحوّل في مفهوم الاستشراق ذاته؛ إذ إن اشتراك عدد من الباحثين الذين ينتمون إلى مناطق

شرقية ولكن في جامعات غربية جعل مصطلح "المشرق Orient" يفقد كثيراً من دلالاته القاطعة، وكذلك الأمر فيما يتعلق بمصطلح المستشرق، بعد أن أصبحت الحدود الجغرافية غير قاطعة مع نزوح مسلمين كثر للعيش في البلدان الغربية وتكوين جماعات أصبحت تؤدي دوراً في الإسهام الحضاري الغربي⁽⁷⁾.

وقد طال التحوُّل خصائصَ المستشرق نفسه؛ إذ استقرَّ في الأدبيات العربية والغربية القديمة حول "الاستشراق"، أن الاستشراق "مهنة" أكثر منه علماً، وجوهر هذه الخصيصة يكمن في بُعد التفرُّغ لأداء هذه المهنة، ومن ثمَّ فقد كان كثير من المستشرقين يحققون مخطوطات في علوم هم ليسوا متخصصين فيها، وخصيصة المهنيَّة يمكننا أن نقرأها في كثير من التعريفات عرضها أحمد سمائلوفيتش للمستشرق، وخلص منها إلى قوله: "إن الاستشراق مهنة أكثر منه علماً"⁽⁸⁾.

وهذا لم يعد متحققاً اليوم؛ فالمستشرقون صاروا أكثر نزوعاً إلى التخصصية والعلمية على نحوٍ كبير، وذلك بحكم انتماءاتهم إلى الأقسام العلمية في جامعاتهم التي أصبحت تقدم برامج أكثر تخصصية.

إن التخصصية صارت أمراً حتمياً أمام المستشرقين المنتمين إلى الجامعات الغربية، يقول واردنبرغ (Waardenburg): "على النقيض من المرحلة التي سبقت الحرب العالمية الثانية، فإن الحاجة إلى التخصص ما بين المتخصصين بالدراسات الإسلامية والعلماء في الدراسات الشرقية عموماً أصبحت أمراً لا مفرَّ منه، فإذا كان بمقدور بعض العلماء، في المرات السابقة على الأقل، تحقيق نموذج معيَّن من الإنسان العالمي، فقد أصبح كلُّ المستشرقين متخصصين في الوقت الحاضر، ومن بين هؤلاء تطوَّر تمييزٌ بين من ينفِّدون بحوثاً عما يسمَّى قطاعات البنى التحتية الصلبة

للمجتمعات الإسلامية (ولا سيما العلوم الاجتماعية)، ومن يدرسون ما يُسمّى قطاعات اللغة والأدب، والفن والتاريخ، والثقافة والدين"⁽⁹⁾.

ملحّ آخر يتعلق بالمستشرق نفسه، وهو أن التعريفات القديمة للمستشرق كانت تصبغه بصبغة "المتبخر"⁽¹⁰⁾، وتضع التبخر في علوم الشرق شرطاً للحكم على الباحث بأنه مستشرق، حتى أن سمايلوفيتش يعلّق على هذا الملح بقوله: "فكأنّ هذا التبخر شرط أساسي في عالم الاستشراق؛ لأنه لا يمكن أن يأتي بنتائج علمية سليمة إطلاقاً إلا بذلك"⁽¹¹⁾.

ولكنّ هذا الشرط السابق لا يمكن أن ينطبق على الباحثين في حقل الأدب العربي على سبيل المثال؛ إذ إنهم كما تقدّم القول أكاديميون، وحدود معارفهم العلمية عن الشرق ضيّقة، ولا تتجاوز موضوعهم الذي يبحثونه، فمنهم من وقّف جهوده - مثلاً - على دراسة الرواية المصرية فقط، بل أحياناً دراسة كاتب مصري واحد، وآخر يكتب عن الروايات العربية فقط، وإنتاجهم العلمي يكون في كتب أو بحوث متنوعة يعاد تحريرها، وهذا يرجع - في نظري - إلى تحوّل الأهداف من وراء البحث؛ فبعد أن كانت معرفة الشرق تكون لأهداف استعمارية أو تبشيرية أو تاريخية أو حتى شخصية، أو لتقديم صورة كاملة عن الشرق، فإنها أصبحت تتوجه اليوم إلى تغطية نقطة بحثية في خارطة البحث العلمي لمعهد علمي ما.

ويقول "روجر آلن Roger Allen"، أحد أهم المستشرقين البريطانيين عنايةً بالأدب العربي الحديث، مُوصِّفاً الحالة التي صار إليها نوعٌ من أنواع المستشرقين في حقل من الحقول الاستشراقية، وهو دراسة الأدب العربي: "في الجامعات الغربية ندرس الأدب في صيغة الدراسات النقدية والنظرية، ونهتم أكثر الوقت بالأبعاد الجمالية للأدب، ومن الواجب علينا في البداية الاعتماد على نصوص مترجمة؛ لأن اللغة العربية تتطلب فترة زمنية طويلة جداً لإتقان المهارات اللازمة لقراءة النصوص

الأدبية المعقّدة أسلوبًا وشكلًا. وفي واقع الأمر، ولسوء الحظ، تتوفر صفوف (مواد) في الأدب العربي في مجموعة صغيرة جدًا من الجامعات والكليات، ويتخصص به عدد صغير من الطلاب⁽¹²⁾.

وفيما يتعلق بحقل الدراسات الأدبية والنقدية، فإن البحث الاستشراقي شهد تحولات شكلية وموضوعية في معالجته الإنتاج الأدبي العربي ومتابعته إياه، وقد عمل ظهور نقد ما بعد الاستعمار على إثراء الدراسات الاستشراقية والدراسات الثقافية عمومًا؛ بتحريكه الماء الراكد في هذا الباب. وكذلك كان النقد النسوي، الذي أعاد معالجة قضايا كانت قد تناولتها الدراسات الاستشراقية من قبل، ولكن في كأس جديدة، فضلًا عن التغيّرات السياسية التي أعادت تشكيل منطقة الشرق الأوسط، وصاغت صورة جديدة لثنائية الشرق والغرب.

إن ملامح هذا التحول بدأت مع ثلاثينيات القرن العشرين وأربعينياته، إذ بدأ نفرٌ من المستشرقين الاهتمام بالأدب العربي الحديث الذي كان قد بدأت عليه ملامح النضج الفني؛ ولاسيما الأدب النثري، يأتي على رأس هؤلاء، المستشرق البريطاني "هاملتون جب H.A.R. Gibb"⁽¹³⁾؛ إذ إنه أوّل مستشرق إنجليزي، وقد يكون أوّل مستشرق على الإطلاق، كتب عن الأدب العربي الحديث، وفي سياق رصد هذا التحول، يقول محمد أمين حسونة في مقالة له عام 1941م: "تلوّح اليوم في أفق البحث العلمي ظاهرة جديدة باهتمام أبناء الناطقين بالضاد، ذلك أن مجرى بحوث المستعربين وعلماء المشرقيات من الإنجليز بدأ يتحول رويدًا رويدًا، من دراسة الأدب العربي القديم إلى دراسة الأدب العربي الحديث، نراهم يقومون بنفس الخدمات التي رصدوا عليها جهودهم من قبل، وهي إذاعة كنوز الآداب العربية وتعريف الغرب بشيءٍ من أفكارنا وثقافتنا، وتصويرنا كأمة حية تنشد نصيبها في الحياة الأدبية"⁽¹⁴⁾

ومن تآزر مع "جيب" في تلك الفترة في متابعة الأدب العربي المعاصر، كان المستشرق الإنجليزي "نيفل باربر Neville Barber"، الذي يقول عنه محمد أمين حسونة: "نشر الكاتب نيفل باربر، الذي يتولى الآن الإشراف على القسم العربي بمحطة الإذاعة بلندن، دراسات وافية عن الأدب المعاصر، منها رسالته عن (المسرح العربي في مصر نشأته وتاريخه)، و(الأدب المسرحي المصري)، و (مصر وحركة بعث الثقافة العربية)، ثم دراسته الممتعة عن المنفلوطي؛ حيث حلل فيها بإسهاب حياته الأدبية ونوّه لجهوده في تطويع اللغة الفصحى لخدمة الفن الروائي، وترجم معها مختارات للمنفلوطي، كما نقل من سنوات رواية عودة الروح للأستاذ توفيق الحكيم إلى الإنجليزية"⁽¹⁵⁾.

إن ثمة أسبابًا ثلاثة - في رأبي - وراء التأخر في اهتمام المستشرقين بالأدب العربي الحديث والتحوّل إليه في مرحلة لاحقة؛ تترتب هذه الأسباب بحسب أهميتها؛ على النحو الآتي:

1- **السبب الأول:** أن الأدب العربي الحديث لم يكن قد وصل إلى مرحلة من النضج الكافي يستطيع بها أن تكون له هويته المستقلة ويتخلص من قيد التبعية للشكل الغربي وخصوصًا في فن القصة، والأمر ينطبق كذلك على الشعر العربي الحديث الذي لم يتخلص من التقليدية إلا مع الرومانسيين والمهجريين والديوانيين، ومن ثمّ انصرفت الدراسات الاستشراقية عنه.

2- **السبب الثاني:** أمّا ثاني هذه الأسباب هو أن المستشرقين انصرفوا انصرافًا تامًا إلى التحقيق والنشر وكذلك الدراسات الإسلامية، فقد كان العمل في التحقيق والنشر هو الأهم بالنسبة لهم في اكتشاف الدراسات العربية، والمعارف الشرقية بشكل عام، ولما فرغ المستشرقون من هذه المهمة انصرفوا إلى درس ما تم إخراجهم إلى النور، سواء من الأدب القديم أو الحديث.

ويوصّف أحدُ الباحثين موقفَ المستشرقين المتحوّل من التحقيق إلى الدرس بقوله: "لم تنشط حركة التحقيق والنشر بطريقة ملحوظة إلا مع بداية القرن التاسع عشر، واستمرت مزدهرة حتى منتصف القرن العشرين تقريباً، ثم بدأت في الخفوت حتى إنها تكاد تكون قد توقفت تماماً الآن، ولعل ذلك راجعٌ إلى انصراف المستشرقين إلى الدراسة والبحث في الأدب العربي، بعد أن وضع أسلافُهُم الأسس الراسخة في كشف هذا التراث وإخراجه، ولم تعد بهم حاجة ماسّة إلى عملية التحقيق، كما آلت إلى الأصحاب الحقيقيين لهذا التراث، وهم علماء العرب الذين تفرغوا لها، وبذلوا أقصى الجهد في سبيل إحياء تراثهم، واستدركوا على المستشرقين ما فاتهم وصححو أخطاءهم" (16).

ويدعمُ السبب السابقَ تعليلُ هاملتون جب الانصرافَ عن دراسة الأدب العربي الحديث وذلك للاهتمام بالدراسات الإسلامية؛ يقول: "كان الأدب العربي أقل الآداب الشرقية الحديثة حظاً من عناية الأوروبيين. ويرجع ذلك إلى أن ذلك النفر القليل من الأوروبيين الذين لا يجدون صعوبة في قراءة العربية، منصرفون إلى دراسة ما للإسلام والمسلمين من تراث غني. حتى لم يعد للحاضر في نظرهم أي اعتبار، أو ربما لم يجدوا فيه ما يجذبهم إليه" (17). وقد تناول "نجيب العقيقي" على هامش ترجمته لـ "لسير هاملتون جيب" عدم اهتمام المستشرقين الإنجليز بالأدب العربي الحديث، وعلل ذلك بما سماه "الانهماك في استرجاع القديم"، يقول: "إلى عهد قريب لم يُعبر المستشرقون الإنجليز، المنهمكون في استرجاع القديم، النشاط الأدبي الحديث في الأقطار العربية إلا جانباً قليلاً من الاهتمام، وعلى نفاسة عملهم فقد أغفلوا حالات التطور في الشرق" (18).

3- السبب الثالث: يكمن فيما وصفه الباحثون بـ "الاستعلائية" الغربية، عن إنتاج العرب الفكري والإبداعي، وعن إسهامهم في الحضارة المعاصرة، وقد قال بذلك بعض الباحثين الذين يتفق البحث معهم (19).

فالآن يمكننا الحديث عن مشروعات بحثية في حقل الأدب العربي والنقد، يشترك فيها باحثون غربيون وباحثون عرب، في علاقات قائمة على التكامل، والتعاون من أجل الفهم والتواصل المعرفي، يقول "روجر آلن": "أكثر المختصين الغربيين في الدراسات العربية والإسلامية الذين يدرّسون ويقومون بمشاريع بحثية في هذا الميدان، الآن يفضلون الاشتراك مع زملائهم العرب في نشاطاتهم وخصوصًا المبدعين منهم في مجال الأدب وأنواعه والمشتغلين بالنقد، وهذا بعد ازدياد مرموق في مهارات هؤلاء المختصين الغربيين اللغوية يسمح لهم بالإقامة في البلدان العربية وتأسيس علاقات زمالة وصدقة بالزملاء العرب. وفي ميدان الأدب خاصة، يهتم أكثر المختصين الغربيين الآن بالأبعاد الأدبية والجمالية والنقدية والنظرية للموضوع وليس بالميادين الاجتماعية والسياسية إلى نفس الحد" (20).

إن الاهتمام بالرواية العربية كان ضرورة حتمية لدى البحث الاستشراقي بصورة عامة؛ وذلك لأن الباحثين الغربيين رأوا فيها وثيقة اجتماعية دالة وموقرة لكثير من الجهد والوقت لمن يروم معرفة تفاصيل المجتمعات العربية وبناء الصغرى، وقد بين هاملتون جب هذا المسوّغ المهم للتوجّه نحو دراسة الأدب الحديث؛ فيقول: "من الجليّ أنه لا يمكن أن تتصف أية دراسة للأوضاع الاجتماعية في أي بلد من البلدان بالكمال ما لم يسبقها تفهم لطبيعة الأدب المكتوب فيها والمقروء. وإذا اعتبرت الأقطار العربية من هذه الزاوية وجدت أدبها الحديث معيارًا صادقًا للحركات الفكرية التي تعتلج فيها. بل لعله المعيار الوحيد الذي نستطيع به أن نميّز الطبيعي من المصطنع على نحو واضح حاسم. وقد بلغ الموضوع حدًا من الاتساع كبيرًا حتى لم تعد الإحاطة به متيسرة إلا عن طريق الدراسة الطويلة المركّزة" (21).

إن هذا الكلام الذي قاله "جب" في الثلاثينيات لم يختلف كثيرًا عما يقوله المستشرقون المحدثون بعد نصف قرن تقريبًا أو يزيد، فهيلاري كيلباتريك Hilary Kilpatrick تقول متحدثة عن أهمية أطروحتها حول الرواية المصرية: "إن الروايات

والقصص القصيرة والمسرحيات لا بد وأن نُزوّد بها كواحدة من طرق الإرشاد إلى التطورات الاجتماعية والثقافية في تلك الدول، على الرغم من أنها لا تستطيع أن تقدم وحدها كل التطورات التي تحدث في هذه الفترة سواء على المستوى التحولات الهادئة أو العنيفة⁽²²⁾. وقد كان هذا الكلام من الباحثة بعد قولها بأن الرواية يمكن أن يُستعاض بها عن المعلومات الموثقة عن المجتمعات العربية، التي تبدو غير متاحة نظرًا لسيطرة الحكومات وضيق مساحة الحريات المتاحة للشعوب⁽²³⁾.

ويقول "روجر آلن" أيضًا حول هذا الغرض حين سُئل عن تجربته مع الأدب العربي وحضور الاهتمام بالمجتمع فيها: "من المعلوم أن الأدب له علاقة قريبة جدًا بالمجتمع الذي أُبدع فيه وأكثر ظني أن هذا العنصر المهم في أي عملية تقييم دور الأدب ودراسته لا تزال له أهمية كبيرة في بعض الحضارات العالمية لا توجد في حضارات أخرى (أو بالأحرى إلى نفس الحد)"⁽²⁴⁾.

إن الحالة التي يعيشها المجتمع الغربي من ترقّب للآخر العربي تضمن استمرارية هذه البحوث التي تتابع بدأب ما يمكن أن يقَدّم الصورة الواقعية للمجتمعات العربية، ومما يزيد من هذا الضمان ارتباط العمل الاستشراقي بقوة بحاجة المجتمعات الغربية في الآونة الأخيرة؛ فقد "أخذ المجتمع، أكثر من ذي قبل، يفرض عليهم ضغطًا لجعل خبراتهم ذات صلة بالمجتمع، وتوجب عليهم أن يستجيبوا أكثر من ذي قبل لمطالب مؤسسات في مجتمعاتهم"⁽²⁵⁾.

أمّا عن التلقي الغربي للرواية المصرية، التي عبّرت لفترة طويلة عن الرواية العربية، قبل أن تنشط الكتابة القصصية العربية في الربع الأخير من القرن العشرين، فإنها استحوذت على المتابعة الكبرى من القارئ الغربي، ويمكننا أن نضع أسبابًا رئيسة لحضور الرواية المصرية في التلقي الاستشراقي البريطاني، وتتمثل في ثمانية أسباب رئيسة؛ وهي:

1- النصوص التأسيسية في الرواية العربية نصوصٌ مصرية:

ظلت الرواية العربية قرابة نصف قرن روايةً مصرية، منذ أن ظهرت "زينب" مروراً بمرحلة النضج والتطور على يد توفيق الحكيم ومحمود طاهر لاشين ويحيى حقي والملازني، ومن ثمّ فمن يريد تتبع البدايات والتطورات لا بد من أن تستغرقه الرواية المصرية.

وفيما يتعلق بأهمية تناول الرواية المصرية بوصفها دالة في مرحلة من مراحلها على الرواية العربية، تقول المستشرفة هيلاري كيلباتريك "كانت الرواية العربية، إلى قبل عشرين سنة مضت (كُتِبَ هذا الكلام سنة 1992م) تُعدُّ من الناحية العملية مرادفة للرواية المصرية. ومن ذلك الحين، اكتسبت الرواية موقعاً مرموقاً في الإنتاج الأدبي لمعظم الأقطار العربية... والرواية المصرية تستحق موقعاً منفرداً في أية دراسة للأدب العربي الحديث، بسبب عدد الأعمال المكتوبة في مصر ونوعيتها، حيث يتيح تاريخ الرواية الطويل نسبياً لأطوارها المختلفة أن تتميز وتُدرس بسهولة أكثر من مثيلاتها في الأقطار التي تحظى فيها الرواية بمدة زمنية لا تتجاوز عقدين أو ثلاثة. هناك بون شاسع بين رواية زينب لهيكل وبين رواية الزمن الآخر لإدوارد الخراط، لكن بفضل وفرة الأعمال الروائية فإنه يمكن أن توضح، إلى حد ما، العلاقة بين المتحفظ أو بالأحرى الجدة التقليدية وبين حفيدتها الجسور ذات العنان المنطلق"⁽²⁶⁾.

2- الترجمة:

لا يخفى ما للترجمة من دور كبير في تقديم العمل الأدبي للآخر كي يطلع عليه، ولما كانت الرواية المصرية هي النصوص الأولى كما سبق وتقدّم، فقد كان لها السبق إلى الترجمة إلى اللغات الأخرى وعلى رأسها الإنجليزية، ويوصّف "روجر آلن" هذه الخصوصية بقوله: "كانت قائمة النصوص المترجمة المتوافرة في السوق قصيرة جداً، ومتركزة إلى حد بعيد على الكتاب المصريين. فقد ترجم ديموند ستيوارت (Demond Stewart) "الأرض" لعبد الرحمن الشرفاوي، والرجل الذي فقد ظله لفتحي غانم،

وترجم زميلي تريفور لي جاسيك Trevor le Gassick (زقاق المدق لنجيب محفوظ)⁽²⁷⁾.

وللترجمة الأثر الأكبر في أخذ الرواية المصرية الصدارة في الاهتمامات القرائية والبحثية الغربية، ومن بعدها الرواية العربية، والرهان عليها رهانٌ لا يخسر، وقد كانت الترجمة صاحبة الفضل في حصول محفوظ على نوبل؛ فـ "لجنة نوبل تقرأ نصوص الكُتاب المرشّحين في بعض اللغات فقط (والعربية ليست من هذه اللغات) فبدون توفر نصوص مترجمة لأي كاتب عربي، ولعدة أمثلة من مؤلفاته، وفي أكثر من لغة أوروبية واحدة، ليست هناك أي فائدة في ترشيح كاتب عربي على أساس قيمة المؤلفات وتقييمها النقدي في السياق المحلي العربي فقط. وكان فوز نجيب محفوظ بالجائزة مثلاً جيداً لما هو المقتضى وهذا بعدد مؤلفاته المتوفرة في نصوص مترجمة إلى عدة لغات أوروبية (والسويدية واحدة منها!) وتنوعها وتمائزاتها الفنية"⁽²⁸⁾.

3- جائزة نوبل:

لقد كان حصول "نجيب محفوظ" على جائزة نوبل حدثاً فارقاً في توجيه القراء والنقاد الغربيين إلى الرواية العربية بشكل عام، وبالطبع "نجيب محفوظ" على وجه الخصوص، تقول "كيلباتريك": "إن فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب في عام 1988م يشير إلى اعتراف عالمي بمكانة الرواية المصرية وبمكانة إنجازات محفوظ بوصفه فناً مبدعاً بطريقته الخاصة وشخصاً عمل أكثر من غيره ليجعل هذا النضج حقيقة"⁽²⁹⁾.

ويُعَدُّ "روجر آلن" حصول نجيب محفوظ على جائزة نوبل مرحلة تحول في تقييم الرواية العربية، يقول: "إذا كتب معلقون غربيون كثيرون عند إعلان فوز محفوظ بجائزة نوبل في سنة 1988م، أن محفوظ هو ديكسنس القاهرة Dickens أو بلزاك Balzac يمكننا القول إن مشروع الترجمة (بمعنى مشروع نقل ثقافي) قد اكتمل، وإننا على عتبة مرحلة جديدة في تقييمنا للرواية العربية في السياق غير المحلي"⁽³⁰⁾.

فالاتِّباط وثيق بين الترجمة ونوبل؛ فمثلما كانت الترجمة سببًا إلى نوبل كانت نوبل أيضًا سببًا ودافعًا إلى الترجمة على نطاق أوسع لمحفوظ ولغيره؛ فمند "فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل أصبح الكاتب العربي الوحيد الذي تُرجمت رواياته ومؤلفاته الأخرى بوجه منظمّ تمامًا. وكانت بداية المشروع فعالًا في سنة 1972م، إذ ترجمت مطبعة الجامعة الأمريكية في القاهرة عدة روايات إلى اللغة الإنجليزية"⁽³¹⁾. والأمر لم يعد مقتصرًا على ترجمة أعمال محفوظ، بل شمل أعمال غيره من الكتاب، فنكتب هيلاري كيلباتريك سنة 1992م، أنها لاحظت أن ترجمة أعمال الكتاب المصريين بعد نوبل أصبحت تسير بوتيرة أسرع، على العكس من وتيرة ترجمة الأعمال السابقة على نوبل، تقول: "هناك إشارة، على الرغم من أنها اعتباطية إلى حد ما، تتعلق بتغير حالة الرواية المصرية في الخارج تشير إلى أن هناك العديد من الروايات الحديثة قد ترجمت خلال سنوات من ظهورها، بينما حالة الأعمال المترجمة سابقًا، عندما توجد، فإنها عادة ما كانت تأتي بعد عشرين سنة أو أكثر من نشرها"⁽³²⁾.

غير أنه مما ينبغي إيرادُه في هذا السياق هو أنه يجب ألا يُعَوَّل كثيرًا على الترجمة أو حصد الجوائز العالمية في عقد الأمل على أن تتبوأ الرواية العربية عمومًا مكانتها المستحقَّة في السياق العالمي؛ لأنه ما زالت الفجوة واسعة بين الإنتاج الروائي العربي والمتلقي الغربي، وهذا ما نبّه إليه روبن أوصل حين قال منذ عشرين سنة تقريبًا: "لقد فشلنا حتى الآن، نحن في الجامعات الغربية، في جذب زملائنا في اللغة الإنجليزية، وفي اللغات الأخرى إلى الأدب العربي بشكل فعال"⁽³³⁾. ومن ثمَّ فقد دعا إلى خلق روابط، ومد جسور، بين الأدب العربي العالمي والسياق العالمي، وقد حدد ثلاث طرق من أجل هذا الهدف، تتمثل في التعاون بين المتخصصين في اللغة العربية من العرب وغيرهم من الغربيين، وجذب الدارسين والكتّاب في الإنجليزية وفي الآداب الأخرى إلى العربية وتعريفهم بكنوز الأدب العربي، وإقامة اتصال بين أفضل الكتّاب العرب والكتاب والنقاد من اللغات الأخرى"⁽³⁴⁾. وهذا يعكس تحمُّسًا شديدًا منه، ودافع هذا التحمُّس هو تقدير قيمة الأدب العربي، إذ يقول: "إن

الأدب العربي يستحق هذا... إن هذا هو أقل ما ندين به، نحن في الجامعات الغربية للأدب العربي" (35).

4- الاهتمام بالأدب النسوي في العالم العربي:

تلعب الأيديولوجيات دورًا مهمًا في توجيه الأنظار نحو أدب ما، وقد كان للتيار النسوي في العالم دور كبير في توجيه الاهتمام بالأدبيات العربيات اللواتي كان جُلُّهنَّ من كاتبات الرواية والفن القصصي بشكل عام، فمع ما يُسمَّى ببحوث الجندر Gender أو النقد النسائي Feminist Criticism، تم إدماج عدد من الكاتبات العربيات في هذا التيار وذلك بمتابعة أعمالهن الإبداعية، وكانت بداية ذلك مع الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين، وذلك "حينما بدأت دراسات نقدية متناثرة في الظهور متناولة كتابات بعض منهن مثل نوال السعداوي في مصر، وليلى بعلبكي في لبنان، وكوليت خوري في سوريا" (36).

لقد أتت هذه الحركة ثمارها الإيجابية على دراسة الرواية العربية والرواية المصرية، وتوجيه الاهتمام إليها، حتى لو كان تحت عباءة التيار النسوي، المهم هو وضعها في دائرة الضوء والاهتمام لدى الدارس الغربي، وكان التزايد الكبير في الاهتمام بهذا التيار الروائي مع الثمانينيات؛ "فقد أقيم أول معرض كتاب نسوي عالمي في لندن 1986م، وشهد تقديم كتابات كاتبتي عربيتين لمتحدثي الإنجليزية، فقد أصدرت دار النشر (Quartet) الترجمة الإنجليزية لرواية الكاتبة اللبنانية حنان الشيخ، بعنوان "حكاية زهرة" 1980م، وهي رواية كانت قد أثارت جدلاً واسعاً حين نُشرت بالعربية، كما أصدرت الدار ترجمة لمجموعة قصصية للكاتبة المصرية أليفة رفعت، أعطتها عنواناً هو Distant view of a Minaret 1986م... وها نحن أولاء بعد أربعة عشر عامًا نجد النساء العربيات يتمتعن بشهرة أكبر بكثير، سواء في أوطانهن

أو في الخارج⁽³⁷⁾. وهكذا كانت هذه الشهرة في حقيقتها فتحًا للرواية العربية وللأدب العربي الحديث.

5- المجالات العلمية:

قامت بعض المجالات بالتعريف بالأدب العربي الحديث للقارئ الأوروبي، وذلك عن طريق المتابعات الدائمة لما يُنشر في العالم العربي، وعن طريق البحوث النقدية والترجمات التي كانت تُنشر فيها، ومن هذه المجالات المهمة، مجلة الأدب العربي Journal of Arabic Literature التي صدرت في لندن 1970م، ومجلة الدومينيكان للدراسات الشرقية (ميديو MIDEO) في القاهرة 1954م، ومجلة الشرق Orient (1957 - 1968)، والشرق الحديث Oriente Moderno، روما 1921، ومجلة الشرق الأوسط Middle East Journal. ويعلق الأب روبرت اليسوعي على دور هذه المجالات بقوله عنها: "تابعت تطوّر الأدب المعاصر بأمانة في جميع أنحاء العالم العربي"⁽³⁸⁾.

6- المهجريون والأساتذة العرب في الجامعات الغربية:

كان للمهجرين دور كبير في نشر الأدب العربي الحديث خارج نطاق البلدان العربية، وقد كان ما فعلوه بمثابة التأسيس لفكرة الخروج بالأدب العربي الحديث من الحدود العربية إلى آفاق أخرى، يقول روجر آلن ميمّناً دور أولئك المهجرين: "كانت هناك حركة أدبية أخرى لها دور مهم في تلقي القراء الإنجليز والأمريكيين خاصة للأدب العربي الحديث وهم كتاب المهجر وعلى الأخص مؤلفات جبران خليل جبران النثرية الحالية، وكذلك مؤلفات ميخائيل نعيمة، ولكن حتى إن مجموعات مثل "الأجنحة المتكسرة والأرواح المتمردة" على بعض الكتاب اللبنانيين الذين كتبوا قصصاً قصيرة (سهيل إدريس مثلاً وإميلي نصر الله)، ولاقت النصوص المترجمة لهذه القصص المهجرية شعبية واسعة جداً عند المراهقين في أمريكا، فأكثر

ظني أنها لم تلعب دورًا مركزيًا في تطور الأنواع السردية المعاصرة، فبقى هي والنصوص المترجمة لها جزءًا من تاريخ المراحل الأولى لتطور السرد العربي الحديث⁽³⁹⁾.

ثم قد قام بعض الباحثين العرب الذين درسوا بالجامعات الأوروبية والأمريكية ثم عملوا بها بدور بالغ الأهمية في صناعة جسر بين الإنتاج الأدبي العربي الحديث والمتلقي الغربي، ومن أمثال هؤلاء محمد مصطفى بدوي الذي أشرف على أطروحات جيل مهم من المستشرقين في أكسفورد منهم روجر آلن في رسالته عن المويليحي وهيلاري كيلباتريك في رسالتها عن الرواية المصرية وساسون سومينغ Sasson Somekh في رسالته عن نجيب محفوظ، وقد أسهم بالعديد من الدراسات والكتب مثل كتابه "تاريخ الأدب العربي الحديث"، وكتابه "الأدب العربي الحديث والغرب" Modern Arabic Literature and the West, 1986، وسلمى الجيوسي التي تُشرف على مشروع PROTA لترجمة الأدب العربي في الولايات المتحدة فضلًا عن دراساتها عن الشعر العربي المعاصر. ومن هؤلاء كل من صبري حافظ ومحمود المنزلاوي ومحمد صديق ومحسن جاسم الموسوي ورشيد العناني وغيرهم.

7- الجامعة الأمريكية بالقاهرة:

قام مركز الدراسات العربية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة بدور كبير في تقديم الرواية المصرية للقارئ الغربي؛ إذ إنه قام بإعداد مجموعة من الأعمال البليوجرافية والدراسات المهمة عن الرواية العربية وعن كُتَّابها الرواد، وهذا نتيجة جهود قام بها المستشرق الإنجليزي مارسدن جونز Marsden Jones، وقد تعاون معه الدكتور المصري حمدي السكوت، فتم نشر سلسلة "الكُتَّاب المصريون في القرن العشرين"، وشملت "طه حسين"، و"العقاد"، و"محمد حسين هيكل"، وغيرهم، فضلًا عن بليوجرافيا عن محمد حسين هيكل، وأخرى عن الرواية العربية في طبعة تجريبية صدرت في مجلدين سنة 1994م، ثم طبعة أخرى في خمس مجلدات سنة 1998م.

كم أنها الجهة الوحيدة صاحبة حق ترجمة أعمال نجيب محفوظ إلى الإنجليزية، وأن أعمال محفوظ قبل جائزة نوبل وبعدها صدرت عن وحدة النشر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وقد قامت في عام 2016م بإصدار سلسلة مختصة بنشر الرواية العربية فقط المترجمة إلى الإنجليزية وأطلقت عليها اسم (هوبو Hoopoe).

8- الجمعية الأوروبية للأدب العربي الحديث:

قامت الجمعية الأوروبية للأدب العربي الحديث European Association for Modern Arabic Literature (EURAMAL) بدور بالغ الأهمية في تنشيط البحث الأكاديمي حول الأدب العربي الحديث بشكل عام في الأوساط الأكاديمية الغربية؛ إذ إنها تقوم بعقد مؤتمر دولي كل عامين حول قضية من قضايا الأدب العربي الحديث، وهذا المؤتمر يعقد بالتناوب بين دول أعضاء الجمعية، فتارة في لندن وأخرى في مدريد أو باريس... الخ، وقد عقدت هذه الجمعية ثلاثة عشر مؤتمراً منذ إنشائها سنة 1992م، وعقدتها مؤتمرها الأول في العام نفسه في مدينة نايميخن Nijmegen في هولندا وكان موضوعه عن الحب والزواج والجنس في الأدب العربي الحديث.

ثانياً- أنماط الكتابات الاستشراقية حول الرواية المصرية.

يمكننا وضع أيدينا على خمسة أنماط كتابية تمت معالجة الرواية المصرية من خلالها، لم تكن بالضرورة هذه الكتابات مقتصرة على الرواية المصرية، وإنما تدرج ظهور الرواية المصرية تاريخياً في هذه الأنماط، وهي على النحو الآتي:

(1) النمط الأول: كتابات عن الحضارة الإسلامية أو الشرق بوجه عام:

وتشمل الإنتاج الأدبي الشعري والنثري، ومن النثري النثر العربي الحديث. ويمثل هذا النمط كتاب "هاملتون جب"، وهو (دراسات في حضارة الإسلام)، الذي صدر في ثلاثينيات القرن العشرين، وقد تُرجم إلى العربية. وعلى الرغم من أن هذا

الكتاب لا يقع في النطاق التاريخي لهذا البحث؛ فإنه لا يمكن تجاوزه إذا كنا بصدد تميّط الدراسات الاستشراقية من بدايتها إلى نهايتها، كذلك في ضوء أهمية هذا الكتاب بالنسبة للباحثين الغربيين، فقد كانت المقالتان اللتان نُشرتا فيه عن فن القصة العربية، بمثابة المحرك والدافع لدى جيل جديد من الباحثين في التوجّه نحو دراسة الفن القصصي العربي.

ومن هذا النمط يأتي كتاب صدر مؤخرًا بعد فترة طويلة من كتاب "جب" السابق، وهو (الأدب الحديث في الشرقين الأدنى والأوسط من 1850 - 1970م)، وقد ظهر هذا الكتاب سنة 1991م، وقام بتحريره روبن أوصل Robin Ostle . وكما يتضح من عنوان الكتاب أنه يتسع ليشمل منطقتين كبيرتين، لن يحظى الأدب العربي فيهما، كمياً على الأقل، إلا على قدر يسير من التناول، فما بالنا أيضاً بالرواية العربية فضلاً عن الرواية المصرية.

(2) النمط الثاني: كتب عن الأدب العربي الحديث بصورة عامة:

وفي هذا النمط يتم تناول الفن القصصي ضمن ما يشتمل عليه الأدب العربي الحديث، ويأتي في أول هذه الكتب كتاب جون هيود Jhon Haywood وعنوانه (الأدب العربي الحديث من 1800 - 1970م. مقدمة مع مقتطفات للترجمة)، وقد نُشر سنة 1970م، وهذا الكتاب لم يُترجم إلى اللغة العربية حتى الآن، وهو الكتاب الأول الغربي على الإطلاق الذي يؤرّخ للأدب العربي الحديث. وقد ذكر هيود أنه امتداد لمدرستي كل من "جب" و"آربري"، فيقول: "إن كليهما كان رائدًا في الكتابة عن الأدب العربي بما يهم كلاً من المتخصص والمبتدئ"⁽⁴⁰⁾ فهما كانا في نظره عملاقين "Giants".

والكتاب الذي جاء تاليًا كتاب "هيود"، فهو كتاب "روجر آلن"، المعنون بـ (الأدب العربي الحديث Modern Arabic Literature)، وقد ظهر في الولايات

المتحدة الأمريكية سنة 1987م، ولم يُترجم الكتاب إلى العربية حتى الآن، ولعلّ السبب في عدم ترجمته أنه صالح للقارئ والباحث الغربي ولا فائدة فيه للقارئ العربي، فقد حرره صاحبه لتقديم بانوراما عن عدد من أعمال المبدعين العرب للقارئ الغربي، فهو صورة متطورة لكتاب "هيود" السابق، وصورة أكثر ثراءً، مادةً ومنهجًا.

ومن هذا النمط نفسه، كتاب بيير كاكيا Pierre Cachia وعنوانه : (إطالة على الأدب العربي الحديث The Modern Arabic Literature: An Overview) ، وقد صدر سنة 1990م، ويضم عددًا من المقالات التي كان المؤلف قد نشرها من قبل في مجلات متنوعة، كذلك أُعيد نشر بعضه فيما بعد في أماكن أخرى، مثل تاريخ كيمبرج للأدب العربي الحديث على سبيل المثال. غير أن ما يهم البحث هو أن هذا الكتاب ينتمي إلى النمط الذي يتناول الأدب العربي الحديث جملةً في عدد من البحوث التي تشمل الشعر والدراما والرواية والقصة القصيرة.

والكتاب الذي جاء تاليًا كتاب "كاكيا"، ويندرج تحت هذا النمط، كتاب "روجر آلن" المعنون بـ (An Introduction to Arabic Literature مقدمة للأدب العربي الحديث)، وهو يختلف بالطبع بالطبع عن الكتاب السابق له "الأدب العربي الحديث" الذي سبقته الإشارة إليه، وقد صدر عن منشورات جامعة كامبردج سنة 2000م، وتمت ترجمته إلى العربية⁽⁴¹⁾.

ويُعدُّ كتاب "بول ستاركي Paul Starkey" (الأدب العربي الحديث)، الصادر عن منشورات جامعة أدنبرة في 2006م، هو آخر كتاب صدر من هذا النمط حتى الآن، وقد تمت ترجمته إلى العربية، وقد قصد به مؤلفه القارئ الغربي، أو الطالب الغربي، فالكتاب يُقدّم إلى كل من القارئ العام والمتخصص على حد سواء، ووفقًا لما قاله ستاركي؛ إذ يقول: "قُصد من هذا الكتاب أن يكون مقدمة عامة للأدب باللغة العربية، الذي كتب في المئتي سنة الماضية أو نحوها. وعلى الرغم من أن

القراء المعنيين بهذا الكتاب هم طلاب الجامعة الذين يتعرفون الموضوع أول مرة، ولكنني آمل أن أكون قد حررته لقراء مهتمين بالأدب المقارن، وأيضاً للآخرين الذين قد لا تكون الاهتمامات الأدبية من أولوياتهم، ولكن يكونون مهتمين بشكل أو بآخر بجوانب مختلفة من الشرق الأوسط، وهي منطقة لها أهمية واضحة ومتنامية في العالم اليوم⁽⁴²⁾.

(3) النمط الثالث: الأعمال التي تخص نقد الرواية فقط:

هناك نمط من الكتابات الاستشراقية البريطانية اختص بنقد الرواية فقط دون غيرها من الأجناس الأدبية، وفي استقلال عن تناول الأدب العربي الحديث، ولعلّ أهم مؤلّفين كبيرين يقعان تحت هذا النمط هما كتابا كلٍّ من "هيلاري كيلباتريك" و"روجر آلن"، فكلاهما يمثل نضجاً في الكتابة الاستشراقية عن الرواية العربية، ولاسيما أن صاحبيهما ناقدان بارزان في النقد الروائي، وليس مجرد مستشرقين مهتمين بالكتابة عن الأدب العربي.

ظهر كتاب "هيلاري كيلباتريك" سنة 1974م عن دار "إيثاكا" بلندن تحت عنوان، (الرواية المصرية الحديثة: دراسة في النقد الاجتماعي The Modern Egyptian Novel: A Study in Social Criticism)، ولم يُترجم هذا الكتاب إلى العربية حتى الآن. والكتاب هو في الأصل رسالة الباحثة للدكتوراة في جامعة أكسفورد بإنجلترا، تحت إشراف الدكتور "محمد مصطفى بدوي"، وكانت قد حصلت عليها الباحثة سنة 1971م. وهي الرسالة الأولى في الجامعات الغربية عن الرواية المصرية بصورة مباشرة، وكانت قد سبقتها رسالة في هذا الباب وهي رسالة "ساسون سومبخ" في الجامعة نفسها وتحت إشراف الأستاذ نفسه سنة 1968م عن "نجيب محفوظ".

وأما الكتاب الذي يدخل في هذا النمط، ونال شهرة كبيرة، فهو كتاب روجر آلن، المعنون بـ (الرواية العربية: مقدمة تاريخية ونقدية The Arabic Novel: An Historical and Critical Introduction)، ظهرت الطبعة الأولى عن مطبعة جامعة سيرياكيوز - نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية، وذلك سنة 1982م، بالتعاون مع جامعة مانشستر بإنجلترا، وقدم لها C.E. Bosworth. ثم صدر الكتاب في طبعة ثانية موسّعة، سنة 1995م، عن مطبعة جامعة سيرياكيوز أيضاً، وقد تُرجمت هذه الطبعة (الثانية) إلى العربية⁽⁴³⁾.

(4) النمط الرابع: الكتابة عن قضايا الرواية العربية وكُتابها:

ثمة نمط من الكتابة الاستشراقية البريطانية حول الرواية العربية، والرواية المصرية بالطبع، بدأ في الذبوع مع قرب نهاية القرن العشرين، هذا النمط تجاوز فكرة تقديم مسح للأدب العربي الحديث وأهم كُتابه أو تقديم إطلالة بانورامية على بعض الأعمال، وإنما اتجه إلى معالجة قضايا رئيسة طرحها الإبداع الروائي، وكذلك المتابعة الفاحصة لكتاب بعينهم وكتابات روائية مهمة، وأصبح هذا هو النمط السائد الآن بعد أن اتسعت المدرسة الاستشراقية البريطانية وظهر تلاميذ ينتمون لجيل جديد وللمجتمع أكاديمي حديث، ربما يتجاوز فكرة المدرسية ويخلص على نحو أكثر إلى الانتماء للجامعة التي يتبع لها، سواء في الولايات المتحدة الأمريكية أو في بريطانيا.

في عام 1995م يطالعنا كتاب مهم يعالج موضوعاً رئيساً أيضاً من موضوعات الرواية العربية وهو "الجنس"، وهذا الكتاب هو (الحب والغريزة الجنسية في الأدب العربي الحديث Love and Sexuality in Modern Arabic Literature)، وهو مجموعة بحوث كانت من أعمال مؤتمر الجمعية الأوروبية للأدب العربي 1992م، وقام بتحريرها "روجر آلن Roger Allen"، و"إد دي مور Ed de Moor"، وقد صدر عن دار الساقى بلندن، ويضم (ثمانية عشر) بحثاً عن الأدب العربي جملةً. وفي عام

1998م، ظهر كتاب يعالج قضايا شديدة الصلة بأحد أشكال الرواية العربية، وهو رواية السيرة الذاتية، والكتاب هو "كتابة الذات: كتابة السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث Writing The Self: Autobiographical Writing in Modern Arabic Literature"، وهو أيضًا من أعمال الجمعية الأوروبية للأدب العربي، وقد قام بتحريره كلٌّ من: "روبن أوصل Robin Ostle" و"إد دي مور Ed de Moor" و"شتيفن فيلد Stephan Wild". وصدر عن دار الساقي بلندن، وهو مجموع أعمال أحد مؤتمرات الجمعية الأوروبية للأدب العربي الحديث.

ومن هذا النمط أيضًا يأتي كتاب "التناص في الأدب العربي الحديث منذ سنة 1967م، وقد قام بتحريره كل من لوس ديفلز Luc Deheuvels وبربرا ميخالك بيكولسكا Barbara Michalak-Pikulska وبول ستاركي Paul Starkey وقد نُشر هذا الكتاب في منشورات جامعة مانشستر Manchester University 2009⁽⁴⁴⁾، وهو كذلك من أعمال الجمعية الأوروبية للأدب العربي الحديث وفيما يخص الرواية المصرية، فقد تضمن: (التناص في الأدب العربي الحديث لروجر آلن)/وبحث: (سرد السفينة: ابن المؤقت/ محفوظ/ جبرا. لريتشارد فان لوفن Richard Van Lewen/وبحث: (من المناص إلى الإعلام المختلط: حالة إدوارد الخراط) لبول ستاركي. وقد نُشر هذا الكتاب للمرة الأولى سنة 2006م. وهو مجموعة أعمال مؤتمر الجمعية الأوروبية الذي عُقد في جامعة Jegiellonian, Krakow ياغيلونسكي - كراكوف - بولندا 2003م).

ومن الكتابات التي صدرت وضمّت أوراقًا نقدية تتعلق بإنتاج كاتب بعينه، يأتي الكتاب الذي قام بتحريره Trevor Le Gassick عن نجيب محفوظ، وقد جاء تحت عنوان: (رؤى نقدية حول نجيب محفوظ Critical Perspective on Naguib Mahfouz) فقد كانت كثرة الحديث عن نجيب محفوظ في الأوساط النقدية الغربية؛ ولاسيما بعد حصوله على جائزة نوبل، دافعًا للمحررين إلى عمل توليفة من البحوث

تقدم نجيب محفوظ للقارئ الغربي، لتكون إلى جانب جائزة نوبل خير تقديم، مع الأعمال الروائية التي تمت ترجمتها إلى عدة لغات غربية. وقد صدر عن دار نشر "القارات الثلاث Three Continents Press" وذلك سنة 1990م، ويجمع الكتاب بين دفتيه أحد عشر بحثًا مسبقة بمقدمة متبوعة ببليوجرافيا للبحوث التي تناولت نجيب محفوظ.

ومن الكتابات أيضًا التي خصّت كُتابًا بعينهم، يأتي كتاب (رؤى نقدية حول يوسف إدريس Critical Perspectives on Yusuf Idris) وقد صدر هذا الكتاب بتحرير "روجر آلن" في عام 1993م في الولايات المتحدة الأمريكية عن "القارات الثلاث للنشر"، وبتقديم من يوسف إدريس نفسه. وهذا الكتاب مقسّم ثلاثة أقسام؛ الأول يختص بالبحوث حول القصص القصيرة للكاتب، وهو القسم الأكبر من الأقسام الثلاثة؛ إذ يشتمل على تسعة بحوث من مجموع سبعة عشر بحثًا، هي كل ما يضمه الكتاب. ثم يأتي القسم الثاني وبه أربعة بحوث حول جوانب من العالم الروائي عند يوسف إدريس.

وبقيت الإشارة إلى كتابين مهمين صدرتا مؤخرًا ويندرجان تحت هذا النمط، وهما: (جورجي زيدان وأسس القومية العربية Jurji Zidan and the foundations of Arab Nationalism) الصادر في سنة 2014م عن منشورات جامعة سيراكوس Syracuse University Press وهو يأتي مقسّمًا ثلاثة أجزاء، يشمل الجزء الأول دراسة لتوماس فيليب Thomas Philipp عن جورج زيدان، ثم الجزئين الآخرين يشتملان على ثمانٍ وعشرين مقالة مختارة من أعمال جورج زيدان قام بترجمتها كل من هيلاري كيلباتريك وبول ستاركي. ثم أتبع هذه الأجزاء ببليوجرافيا لأعمال جورج زيدان المتنوعة.

وثانيهما كتاب: (صنع الله إبراهيم: متمرد وقلم Sunaalla Ibrahim: Rebel and Pen) لمؤلفه بول ستاركي، وقد صدر عن منشورات جامعة أدنبرة سنة 2016م. والكتاب يقع في 231 صفحة ويشمل تحليلات لروايات صنع الله إبراهيم، تستحوذ كل رواية على فصل من فصول الكتاب وقد ارتبط عنوان كل فصل بقضية الرواية الرئيسة، والروايات هي: (تلك الرائحة/ نجمة أغسطس/ اللجنة/ بيروت بيروت/ ذات/ شرف/ وردة/ أمريكانلي/ التلصص/ العمامة والقبة/ القانون الفرنسي/ الجليد).

(5) – النمط الخامس: الموسوعات وكتب المؤسسات:

أعني بهذا النمط الأعمال التي صدرت عن مؤسسات، وهي التي صدرت عن جامعات أو مراكز بحوث رسمية، أو دور نشر كبرى، فهناك من المؤسسات الأكاديمية من لها دور معروف في نشر الأدب العربي الحديث على وجه الخصوص، ويمكننا أن نحصر في ذلك ثلاثة مؤسسات مهمة في المملكة المتحدة تعمل في هذا الصدد، وهي: مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية SOAS وجامعة كامبردج، وجامعة أدنبرة، إلا أن الدور الأكبر تقوم به جامعة أدنبرة في الوقت الحالي وذلك بما تصدره من دراسات في سلسلتها المعروفة *Edinburgh Studies in Modern Arabic Literature* التي تُعد أهم سلسلة في الوقت الحالي معنية بنشر الدراسات حول الأدب العربي، ولا يقتصر ما تنشره على باحثين غربيين وإنما أيضًا تنشر المكتوب بالإنجليزية لباحثين عرب.

ومن الأنماط المهمة التي قامت على إنجازها مؤسسات، يأتي كتاب تاريخ كيمبرج للأدب العربي الحديث، وهو أحد أجزاء تاريخ كيمبرج عن الأدب العربي (*The Cambridge History of Arabic Literature*) وقد قام بتحريره محمد مصطفى بدوي M.M.Badawi و صدر عن منشورات جامعة كيمبرج سنة

1992م، وقد تُرجم إلى اللغة العربية سنة 2002م، وصدر عن النادي الأدبي الثقافي بجدة بالمملكة العربية السعودية بتحرير "عبد العزيز السبيل"، و"أبو بكر باقادر"، و"محمد الشوكاني".

ومن هذا النمط الموسوعة التي صدرت في لندن عن دار نشر روتليدج تحت عنوان (موسوعة الأدب العربي Encyclopedia of Arabiv Literature) وقد قام بتحريرها كل من جوليا سكوت ميسامي Julie Scott Meisami وبول ستاركي Paul Starkey. وهي موسوعة صدرت في جزئين تغطي عصور الأدب؛ الكلاسيكية والوسطى والحديثة، في أكثر من قطر عربي.

ويأتي الكتاب الذي صدر عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة واحدًا من النماذج الممثلة لهذا النمط من الكتابات، وهذا الكتاب يحمل عنوان (الأدب العربي الحديث: أفضل رواية وقصص قصيرة من العالم العربي)، وقام بتحريره دينيز جونسون ديفز، وصدر عام 2006م. والعمل عبارة عن مختارات من الرواية العربية والقصص القصيرة المترجمة إلى الإنجليزية، واشتملت على أعمال لتسعة وسبعين كاتبًا من أربع عشرة دولة عربية. وقد أصدرت جامعة أدنبره مؤخرًا كتابًا يقع في تصنيفه ضمن نمط الكتب الجامعة التي أصدرتها المؤسسات، وهو كتاب The Edinburgh Companion to the Arab Novel in English وقد صدر سنة 2013م.

الخاتمة:

وبعد، فإنه يمكننا الوقوف على عدد من النتائج المهمة من خلال ما تمت معالجته في محوري البحث، وذلك فيما يأتي:

أولاً: أن اهتمام المدرسة الاستشراقية البريطانية بالرواية المصرية تأخر إلى حد كبير على الرغم من أنها كانت تمثل النصوص التأسيسية للرواية العربية بشكل عام، وهذا التأخر سببه الانهماك الاستشراقي التام لفترة طويلة في معالجة الأدب العربي القديم،

وكذلك الظن بأن محاولات كتابة شكل سردي عربي هي محاولات تقليد للشكل الأوروبي وهي محاولات غير جادة ولا تستحق العناية.

ثانياً: تُعد الرواية المصرية البوابة النصية الأولى - إن صح الوصف - التي دخلت منها الدراسات الاستشراقية بشكل عام، والدراسات الاستشراقية البريطانية على نحو خاص، إلى الأدب العربي الحديث.

ثالثاً: لعب الوسيط العربي دوراً مهماً في توجيه أنظار المدرسة الاستشراقية البريطانية نحو دراسة الرواية المصرية، وخير نموذج على ذلك كان الدكتور محمد مصطفى بدوي الذي أسس مدرسة في أكسفورد لدراسة الأدب العربي الحديث.

رابعاً: قامت المؤسسات بدور مهم في دعم المدرسة الاستشراقية البريطانية وغيرها في دراستها للرواية المصرية، وذلك بعدة سبل مثل المؤتمرات وترجمة الأعمال المهمة كما تبين من البحث.

خامساً: يمكننا الحديث اليوم عن جيلين من المستشرقين البريطانيين المعنيين بدراسة الرواية المصرية والأدب العربي الحديث؛ الجيل المؤسس للدراسات، الذي أفاد من الدراسات العربية حول الرواية المصرية وتابعها، وكانت هذه الدراسات مرجعاً له، وجيل التلاميذ الذين أصبحوا يعدون الجيل المؤسس مرجعهم، وتخلّوا شيئاً فشيئاً عن التبعية للنقد العربي.

سادساً: يقيّم البحث الترجمات الإنجليزية للرواية المصرية بأنها غير كافية ولا تتناسب مع كم ما يُنتج من الإبداع الروائي المصري، كذلك فهي عشوائية غير منظّمة، ولا يُستثنى من ذلك إلا القليل من المشروعات التي استهدفت ترجمة الرواية العربية بشكل عام، وقد عرض البحث بعضاً منها، ومن ثم فالبحث يوصي بتبني مشاريع عربية

لترجمة الرواية المصرية إلى لغات العالم المهمة، وعلى رأسها الإنجليزية، وأن يُخصَّص عددٌ من الجوائز لترجمة الرواية العربية إلى اللغات الأخرى.

سابعاً: يوجد تقصير من جانبنا في إنشاء قنوات للحوار مع المستشرقين المهتمين بدراسة الرواية العربية، فلم يُعقد سوى مؤتمر واحد في سنة 1999م تحت عنوان "الأدب العربي والسياق العالمي" بالمجلس الأعلى للثقافة، وتمت استضافة المستشرقين البريطانيين روجر آلن، وروبن أوصل، ولذا، فإن البحث يوصي بأن تُعقد مزيد من المؤتمرات التي يتم فيها استضافة أولئك الباحثين المنتمين إلى المدارس الاستشراقية المختلفة، وذلك في سبيل مناقشة أطروحاتهم بصفة مستمرة وليعرضوا وجهة نظرهم بخصوص قضايا الأدب العربي وذلك لإقامة حوار مستمر لا يكون معه مجال لرؤى غير منضبطة أو غير واقعية حول قضايا الأدب العربي المختلفة.

الهوامش:

- 1 - ميشال، فوكو: حفريات المعرفة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان/ الدار البيضاء - المغرب، الطبعة الثانية - منقحة، 1987م، ص 6.
- 2- نجيب العقيقي: المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة، 2006، الجزء الثاني، ص 7.
- 3- محمد فاروق النبهان: الاستشراق (تعريفه - مدارسه - آثاره)، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسيكو، الرباط، المملكة المغربية، 2012م، ص 28.
- 4- ضياء الدين ساريدار: صورة الشرق في الأدب والمعارف الغربية، ترجمة: فخري صالح، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، ط 1، 2012، ص 39.
- 5- المرجع السابق، ص 129.
- 5- عفت الشرقاوي: عهد من الاستشراق جديد أكثر إنصافاً وأنزّه غاية - مجلة العربي ع 129 أغسطس 1969، ص 123، 124.
- 7- يُنظر في تفصيل ذلك: جان دي جاك واردنبرغ: المستشرقون، ترجمة: د. أنيس عبد الخالق محمود، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2014م، ط 1، ص 12 - 13.

- 8- أحمد سمايلوفيتش: فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1998م، ص31.
- 9- جان دي جاك واردنبرغ: المستشرقون، مرجع سابق، ص70، وقد تحدث واردنبرغ باستفاضة عن التخصصات التي تفككت وتحول مسائرها، وكان الأهم في قوله تأكيده على التخصصية الشديدة، التي تبرزها عبارته: "أصبح التخصص قاعدة"، يُنظر: ص71.
- 10- من هذه التعريفات التي جاءت بلفظة "التبحُّر" تعريف آربري للمستشرق في كتابه "المستشرقون البريطانيون"، ترجمة محمد الدسوقي النويهي، مطبعة وليام كولينز، لندن، 1946م، ص7.
- 11- أحمد سمايلوفيتش: فلسفة الاستشراق، مرجع سابق، ص25.
- 12- كمال الرياحي: حوار مع المستعرب الأمريكي روجر آلن، مجلة دروب، تونس، عدد 24، مارس 2007م. موجود تحت هذا الرابط: <https://housefictionrk.wordpress.com/2017/02/10/>
- 13- هو "السير هاملتون جيب (1895 - 1971م) Gibb, Sir Hamilton, A.R. من مواليد الإسكندرية في مصر، ومن أعلام المستشرقين وخليفة مرجليوث في أكسفورد (1937 - 1955) يُنظر: العقيلي، نجيب: المستشرقون، دار المعارف، الطبعة الخامسة، القاهرة، 2006، الجزء الثاني، ص129.
- 14- محمد أمين حسونة، الإنجليز المستشرقون والإنجليز المسلمون، الهلال، العدد رقم 2، فبراير 1941م، ص321.
- 15- المرجع السابق، ص322. ونيفل باربر Neville Barber كما يذكر نجيب العقيلي: "تعلم اللغات السامية ولاسيما العربية، وقضى شطراً كبيراً من عمره في مصر والعراق وفلسطين والمغرب. ثم أشرف على منطقة الشرق الأوسط في الإذاعة البريطانية (1939 - 1955م)، وانصرف بعد ذلك إلى دراساته في الأدب والتاريخ. العقيلي، نجيب: المستشرقون، دار المعارف، الطبعة الخامسة، القاهرة، 2006، الجزء الثاني، ص143.
- 16- وليد علي السيد: المستشرقون وأثرهم في الدراسات الأدبية العربية، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، 2013م، ص8.

- 17- هاملتون جب: دراسات في حضارة الإسلام، تحرير: ستانفورد شو / وليم بُولك، ترجمة: د. إحسان عباس، د. محمد يوسف نجم، د. محمود زايد، تقديم: د. حسين نصار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2012م، ص 281.
- 18- نجيب العقيلي: المستشرقون، مرجع سابق، ص 129
- 19- يُنظر: وائل علي السيد: المستشرقون وأثرهم في الدراسات الأدبية العربية، مرجع سابق، ص 211.
- 20- حوار كمال الرياحي، مرجع سابق. (نفس الرابط)
- 21- جب: دراسات في حضارة الإسلام، مرجع سابق، ص 282
- 22- Kilpatrick, Hilary: The Modern Egyptian Novel: A Study in Social Criticism, Ithaca Press, 15 South work Street, London, First Published in 1974, P.III.
- 23- Ibid: P.III
- 24- اكمال الرياحي: حوار مع المستعرب الأمريكي روجر آلن، مرجع سابق. (نفس الرابط)
- 25- واردنبرغ: المستشرقون، مرجع سابق، ص 14 .
- 26- هيلاري كيلباتريك: الرواية المصرية من زينب إلى عام 1980م، ترجمة: حسن النعمي، تاريخ كيميردج للأدب العربي، (الأدب العربي الحديث)، تحرير: عبد العزيز السبيل، وأبو بكر باقادر ومحمد الشوكاني، النادي الأدبي بجدة، الطبعة الأولى، 2002م، ص 323 .
- 27- روجر آلن: الرواية العربية والترجمة، مرجع سابق، ص 210
- 28- حوار مع كمال الرياحي، مرجع سابق. (نفس الرابط)
- 29- هيلاري كيلباتريك: الرواية المصرية من زينب إلى عام 1980م، مرجع سابق، ص 369 .
- 30- روجر آلن: الرواية العربية والترجمة، مرجع سابق، ص 209 .
- 31- المرجع سابق، ص 211 .
- 32- هيلاري كيلباتريك: الرواية المصرية من زينب إلى عام 1980م، مرجع سابق، ص 371 .
- 33- روبن أوصل: وجهة نظر من الجامعة الغربية، منشور ضمن أعمال مؤتمر الأدب العربي والعالمية، في الفترة من 4- 7 ديسمبر 1997م، سلسلة أبحاث المؤتمرات (6)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، د.ت، ص 135 .
- 34- يُنظر: المرجع السابق، ص 136 .
- 35- المرجع السابق، ص 136 .

- 36- مريام كوك: النساء يطالبن بإرث الإسلام "صياغة نسوية إسلامية من خلال الأدب"، ترجمة وتقديم: رندة أبو بكر، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2015م، ص 45 .
- 37- المرجع السابق، ص 45 ، 46 .
- 38- روبرت ب. كامبل اليسوعي: أعلام الأدب العربي المعاصر (سير وسير ذاتية)، المجلد الأول، فرانتس شتاينر شتوتكرات، بيروت، 1996م، ص29
- 39- روجر آلن: الرواية العربية والترجمة، مرجع سابق، ص 210 .
- 40-Haywood, Jhon: Modern Arabic Literature. 1800 – 1970 .An Introduction, with Extracts in Translation. Reader in Arabic, School of Oriental Studies, University of Durham. Lund Humphries, London, 1971, P:Vii.
- 41- ترجم الكتاب إلى العربية كلٌّ من: رمضان بسطاويسي ومجدي أحمد توفيق وفاطمة قنديل، وصدر عن المشروع القومي للترجمة، رقم 293 ، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2003م.
- 42- بول ستاركي، الأدب العربي الحديث، نقلته إلى العربية: هند تركي السديري، العبيكان، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 2008م، ص 7 .
- 43- ترجمت الكتاب: حصة إبراهيم المنيف، وصدر عن المركز القومي للترجمة بالقاهرة، العدد 34، سنة 1997م.
- 44- لعلّ القارئ يُلاحظُ معي أن الكتب التي صدرت خارج النشاط الاستشراقي البريطاني تصدر أيضًا عن مؤسسات أكاديمية بريطانية، ومثال ذلك كتابا الجمعية الأوروبية للأدب العربي الحديث؛ فقد صدر كتاب السيرة الذاتية عن جامعة "كّرم"، وصدر كتاب "التناس" عن جامعة مانشستر، وكتلتاهما جامعتان بريطانيتان.